برسى بيش شلى

١٧٩٢ — ١٨٢٢ م .

آراؤه فى الذود عن الشعر

(٤)

وكلا الاثنين دانتى وملتون قد نفذا فى صميم الدين القديم للعالم المتقدم فان روحه نحيا فى شعرهما وربما بنفس النسبة التى بقيت عليها صوره فى تلك العبادة الفاسدة فى أوربا الحديثة .

فأحدهما سبق حركة الاصلاح والآخر أتى بعدها — بفترة متقاربة غالباً — فكان دانتى أول مصلح دينى وقد فاقه لوث فى الغلظة والفظاظة لا فى الجرأة والتشهير على استبداد البابوية .

كان دانتى أول منقذ لأوربا الغارقة فى سباتها فخلق لغة فيها موسيقى وفيها اقناع من عماء الهمجية المتنافرة وكان الحاشد لتلك الأرواح العظيمة التى أشرفت على نهضة إحياء العلوم ، فكلماته ذاتها طبيعية للروح : كل كلمة شرارة وذرة مشتعلة لفكرة باقية أبداً .

وكل شعر سام لا يحدّ فربما أزيح ستار عقب ستار ولا نصل إلى جماله الحقيقى . والقصيدة الرائعة ينبوع متدفق بمياه الحكمة والاجتهاد وبعد أن يستنفد الشخص أو العصر كل قوته الإلهية التى تتيحها له الروابط الخاصة يخلفه آخر ثم آخر وتتجدد العلائق دائماً وتصبح مصدر سرور غير مدرك . وقد عنى ذلك العصر الذى تلا عصر دانتى وبترارك وبوكاشيو بالتصوير والنحت وفن البناء ، وقد أمسك تشوسر بالالهام الالهى وقام الأدب الانجليزى على أنقاض الأدب الايطالى . ولكن دعنا لا نحيد عن

الذود إلى تاريخ نقدى للشعر وتأثيره على المجتمع فحكى أن ألمعنا بتأثير القراء بكل معنى الكلمة فى عصورهم والعصور التى تلتها . ولكن الشعراء هوجموا من طريق آخر ليتخلوا عن عرشهم إلى رجال العلم والعقل . فمن المسلم به أن استخراج الخيال يبعث السرور كثيراً ولكن استخدام العقل أنفع . دعنا نشرح على هذا الفرق ما الغرض هنا من المنفعة ؟ فاللذة أو الحس فى معنى أشمل هو الذى يدأب للحصول على وجدان كل رجل حساس ذكى . وعند الحصول عليه يكتفى . فهناك نوعان من اللذة إحداهما عامة باقية ومستمرة والاخرى وقتية خاصة . والمنفعة لابدائه تتخذ سبيل إحداهما ، فالاولى زيادة على مضاعفتها وتهذيبها وتوسيعها للخيال وإلباسها روحاً جديدة للحس فهى نافعة . ولكن ربما يتبادر إلى الذهن معنى أضيق لكلمة منفعة بأن تقتصر على التعبير عن ذلك الذى ينيلنا كل ما تتطلبه طبيعتنا الحيوانية وجعل الناس فى أمن ودعة . ومما لاشك فيه أن ناشرى المنفعة على هذا المعنى لهم مكانهم الخاص فى المجتمع فهم يتتبعون آثار الشعراء وينقلون مقتطفات انتاجهم إلى كتاب الحياة العامة ، ومساعيهم سامية ما دامت تربط قوانا الطبيعية الدنيا بحدود قوانا العليا . ولكن عندما يهدم الشاك تلك الحزعبلات المتراكمة عليه أن يحذر أن يشوه — كما شوه قبله الشعراء الفرنسيون — الحق الخالد الذى صبغ خيال الناس ، وعند ما يشرع المهندس الميكانيكى فى تقصير المسافة ويوجد العمل رجل الاقتصاد السياسى فعليهما أن يتنبها إلى ارتباط تأملاتهما بالنظريات الأولى التى هى من عمل الخيال .

ومن الصعب أن نعرف اللذة فى أسمى معناها . فان التعريف يتضمن عدداً عظيماً من المتناقضات الظاهرية لأنه من النقص الغامض فى تكوين الطبيعة الانسانية أن الألم الذى يصيب أجزاءنا الدنيا تتبعه لذة فى أجزائنا العليا . فالحزن والخوف والألم واليأس نفسها هى السبل المختارة لتقربنا من الخير السامى . وشعورنا بالعطف فى المأساة يقوم على هذه النظرية : فالمأساة تدخل علينا السرور بعرضها علينا ظلاً من السرور الذى يوجد فى الألم . وهذا أيضاً أساس الحزن الذى لا يمكن فصله من أعذب الألحان . واللذة التى توجد فى الحزن أقوى من اللذة التى توجد فى اللذة نفسها ، وعلى هذا قد قيل « الأفضل أن تذهب الى مأتم من أن تذهب الى عرس » وليس ذلك أن النوع السامى من السرور لابد أن يقترن بالألم ، فان الابتهاج بالحب والصداقة والافراط فى اعجابنا بالطبيعة وسرورنا بادراكنا الشعر تخلوا منه خلواً تاماً .

فادخال اللذة وتقويتها فى اسمى معناها هو منفعة حقيقية . وأولئك الذين يجلبونها ويحفظونها شعراء أو فلاسفة شعراء .

وإن جهود لوك وهيوم وجيبون وفلتير وروسو وتلاميذهم فى اسعاد الانسانية الضالة المظلومة قد أوجدت شعور الاشفاق بالجنس البشرى (ومع أن روسو وضع هكذا فقد كان فى قرارة نفسه شاعراً . أما الآخرون حتى فلتير فكانوا مجرد علماء) ومع ذلك فمن السهل أن نقف على مقدار التقدم الأخلاقى والعقلى الذى كان يمكن للعالم أن يكون عليه لو أن هؤلاء لم يوجدوا . وإن شيئاً واحداً يطرق خيال كل واحد وهو تصور حالة العالم الأخلاقية إذا كان أمثال دانتى وبترارك وبوكاشيو وتشوسر وشكبير وكلدرن ولورد بيكون وملتون لم يظهروا على مسرح الحياة وروفائيل ومبخائيل انجلو لم يوجدا ، أو أن الشعر العبرى لم يترجم ، أو ان العودة الى درس الأدب اليونانى لم تحدث ، أو أن آثار النحت القديم لم تصل الينا أو أن الشعر الذى فى دين القدماء قد باد . فانه ما كان للعقل الانسانى ـ إلا بوجود هذه المحفزات ـ أن يستيقظ الى اختراع هذه العلوم المتشعبة وأن يدخل قوة العقل النافذة فى اضطرابات المجتمع التى تحاول الآن أن تسمو على التعبير المباشر لملكة الاختراع والابتكار نفسها . فلدينا حكمة أدبية وسياسية وتاريخية أكثر مما نعرف كيف نوجهها الى العمل ، ولدينا معرفة علمية واقتصادية أكثر مما يتناسب مع التوزيع العادل للانتاج الذى يضاعفه . فالشعر فى هذه النواحى من التفكير يختفى وراء الحقائق المجتمعة والفروض المتعددة ، ولكننا فى حاجة الى ملكة الابتكار لنتصور الشىء الذى نعرفه ، وفى حاجة أيضاً الى الحافز العظيم لعمل مانتصوره . نحن فى حاجة الى شعر الحياة فقد سبق تقديرنا ادراكنا وأكلنا أكثر مما نقوى على هضمه ، وإن استثمار تلك العلوم التى وسعت حدود سلطة الانسان على العالم الخارجى لفى حاجة شديدة الى الملكة الشعرية حتى نقف على كنه العالم الداخلى . فالانسان مع انه استعبد العناصر الطبيعية لا يزال عبداً ، ووظائف الملكة الشعرية مزدوجة فتخلق باحداها موادا جديدة للمعرفة والقوة واللذة وتولد بالأخرى رغبة فى العقل لنشر هذه المواد من جديد وترتيبها تبعاً لنظام خاص يمكن أن يطلق عليه الجمال أو الحسن .

والحاجة إلى الشعر لا تطلب إلا فى أوقات ـ عند ما يقهر تزاحم المواد الخارجية من الافراط فى حب الذات والانشغال بالماديات ـ تلك القوة التى تحولها إلى قوانين داخلية للطبيعة الانسانية فيصبح الجسم حينئذ ثقيلاً على ذلك الذى يبعث فيه الحياة .

والشعر فى الحقيقة شىء إلهى فهو مركز ومحيط دائرة المعرفة . وهو الذى يدبر سائر العلوم وهو فى نفس الوقت زهرة التفكير . هو الشكل الذى يتدفق منه الكل والذى يزين الكل . وهو الذى — إذا لفحه لافح — أهلك فيه الثمرة والبذرة ومنع الغذاء عن شجرة الحياة وعاق نمو أغصانها . فهو أبدع وأتم زهرة لجميع الأشياء .

وهو فى رائحة ولون الوردة لا فى حياكة العناصر التى تتألف منها . وهو فى شكل وروعة الجمال الحى لا فى الوقوف على دخائله وأسراره .

ماذا تكون الفضيلة والحب والوطنية والصداقة ؟ بل قل ماذا يكون جمال هذا العالم الذى نعيش فيه ومن يكون عزاؤنا على جانب هذا القبر وماذا تكون رغائبنا بعد أن نودع فيه اذا لم يكن الشعر قد صعد ليستحضر نوراً وناراً من تلك الارجاء الخالدة حيث ملكة العقل لا تجرؤ على التحليق فيها ، ولو استعارت أجنحة نسر ؟ !

والشعر ليس كالعقل ملكة يمكن إجهادها نزولاً على رغبة الارادة . فلا يستطيع إنسان أن يقول « لابد أن أنشىء قصيدة » . فان أعظم الشعراء يستطيع أن يقول ذلك لأن أثر العقل فى الابتكار كأثر القنديل الذابل الذى يضىء وقتاً ما بعامل خفى كريح غير دائمة الهبوب . فهذه القوة تتولد من الداخل كلون الزهرة التى تذبل وتتبدل عند ما تأخذ فى النمو . والأجزاء الشعورية فى طبيعتنا غير منبثة سواء فى قربها أو بعدها . فلو كان هذا التأثير مستمراً فى صفائه وقوته لما استطعنا أن نتنبأ بعظمة النتائج . ولكن عند البدء فى الكتابة يكون الالهام قد انطفأ . ولذلك فان أروع أنواع الشعر الذى ارتبط بالعالم ربما كان ظلاً ضعيفاً لمشاعر غريبة للشاعر . وإذا نظرنا الى أعظم شعراء هذا العصر نجد أنه من الخطأ أن نقرر أن أروع صحائف شعرهم كانت وليدة الاجهاد الفكرى . وان الكد والابطاء اللذين امتدحها النقاد يمكن أن يفسرا بأنهما لا يعبران عن أكثر من ملاحظة دقيقة لدقائق الالهام ، وقد فهم ملتون الفردوس الضائع جملة قبل أن يبرزها أجزاء . فأمامنا سلطته الخاصة على آلة الشعر وهى تملى عليه أنشودته من غير تعمل أو قصد . فمثل هذه المنتوجات للشعر كالفسيفساء للتصوير .

والغريزة وفطرة الملكة الشعرية لا تزالان أكثر ظهوراً فى الفنون السهلة التصويرية ، فالتمثال الفخم أو الصورة البديعة تأخذ فى التطور كما ينمو الطفل فى بطن

أمه . فالشعر هو سجل دوّنت فيه أحسن وأسعد ساعات لأحسن وأسعد العقول .

الشعر كما كان تفسير الطبيعة أسمى وأقدس فى داخلنا . وهذه الأشياء وغيرها التى تتصل بالوجود قد أفصح عنها بكل جلاء أولئك الذين وهبوا حساسية زائدة وخيالاً خصباً . وليس الشعراء خاضعين لقوانين فهم أرواح من أرقى وأسمى نوع . يلوّنون كل ما يتصل بهم بألوان شفافة، فالكلمة صورة فريدة فى تصوير منظر أو عاطفة تمسّ الوتر المسحور وتحيى فى أولئك الذين طالما أفصحوا عن عواطفهم صورة الماضى الدقيق . ولذلك يهب الشعر الخلود لأجل وأحسن ما فى العالم . فهو ينتشل من يد الفناء الزّورات الالهية فى قداسة الانسان .

وهو يبدل كل شىء الى حسن فهو يسمو بجمال أجل الاشياء ويهب الجمال أحقرها وهو يزوج الابتهاج بالهلع، والحزن بالفرح، والابدية بالتغير وهو يوحد تحت سلطانه الخفيف كل الاشياء المتنافرة وهو يغير كل ما يمسه، وكل صورة تشع فى داخله تتحول بحيلة غريبة الى لباس للروح التى يخلقها . فكيمياؤه الخفية تحول تلك المياه السامة التى يصبها الموت على الحياة الى ماء عذب فى أكواب ذهبية .

وهو ينزع عن العالم نقاب الالفة ويعرض ذلك الجمال العارى الناعس الطرف الذى هو روح صوره . وقد وجدت جميع الاشياء كما أدركت أو على الاقل كما أدركها الشاعر . والعقل ذاته يستطيع أن يخلق جنة فى مكان الجحيم وجحيماً فى موضع الجنة . ولكن الشعر يكسر ذلك القيد الذى يضطرنا الى الخضوع الى التأثيرات المحيطة بنا .

وسواء أكان ينشر ستاره الرمزى أم يزيح النقاب الاسود للحياة عند النظر الى الأشياء فهو يخلق وجوداً داخل وجودنا ويجعلنا سكان عالم بحسب هذا العالم المألوف عماء ويستعيد العالم العام الذى نحن أجزاؤه وشعراؤه . وينقى بصرنا من غشاوة الالفة التى تحجب عناصر وجودنا وجلاله . وهو يضطرنا الى أن نشعر بما ندركه وأن نتخيل ما نعرفه .

وهو يخلق العالم من جديد بعد أن تلاشى فى عقولنا بمعاودة الآثار التى بلدت بالتكرار، وكما أن الشاعر هو الموحد لأسمى أنواع الحكمة واللذة والفضيلة والمجد ينبغى أن يكون أسعد وأعقل مشاهير الرجال . أما عن المجد فدع الزمن يكشف لنا عما إذا كانت شهرة أى مهذب آخر للحياة الانسانية تنازع شهرته . وكونه أعقل وأسعد وأحسن الرجال، وكونه شاعراً شيئان متلازمان لا يحتاجان الى إثبات . فأعاظم الشعراء

كانوا أكبر رسل للفضيلة على أكمل وجوهها . ولو أمكننا أن نقف على دخائل أرواحهم ألفيناهم أسعد الناس حظاً وربما سمّى أولئك الذين وُهبوا ملكة شعرية سامية ولكنها ليست بالغة فى السمو ، ولكنهم على أى حال يحافظون على القانون بدلاً من أن يأتوا عليه . دعنا نصدر حكماً أو شهادة بدون محاكمة بأن بعض بواعث أولئك الذين يجلسون فى ذلك المكان الذى لانجرؤ على التحليق فيه تستحق اللوم . دعنا ندعى أن هوميروس كان سكيراً وأن فرجيل كان متملقاً وهورس كان جباناً وتسو كان مجنوناً ولورد بيكون كان مختلساً وروفائيل كان خليعاً وسبنسر كان مأجوراً ولا يليق بنا الآن أن نعلن عن شعرائنا الأحياء ولكن أخلافنا سيصدرون حكماً أشمل مع أصحاب هذه الأسماء فقد قدرت غلطاتهم ووجدت غباراً دقيقاً فى كفة الميزان .

فلو كانت خطاياهم حمراء كالقرمز فهى الآن بيضاء كالثلج قد غسلت فى دم الزمن لفادى الغفور ، انظر كيف امتزجت تلك التهم الصحيح منها والباطل فى حالة مشوهة مثيرة للضحك بالافتراء ضد الشعر والشعراء ، وانظر ما أحقرها عند ظهورها! فالأجدر أن تنظر إلى بواعثك الخاصة ولاتحكم وإلا حكمت على نفسك . والشاعر - كما قيل - يخالف العقل فى هذه الناحية ، أى أنه لا يخضع لسلطان قوى العقل الناشطة .

لقد ظننت أنه من صالح الحق أن آتى بهذه الملاحظات تبعا لذلك النظام الذى هيّأه لها عقلى ومن حيث الموضوع ذاته بدلاً من الأخذ بالصورة الظاهرة للجدال المنطقى . فاذا كان الرأى الذى تضمنته صحيحاً عادلاً فستبقى لتدحض حجج الذين يكرهون الشعر .

والجزء الأول من هذه الملاحظات قد اختص بالشعر فى عناصره ونظرياته وقد ظهر بقدر ما سمحت به تلك الحدود الضيقة التى حددتها ان ما يطلق عليه لفظ شعر فى معنى مقيد له اتصال عام بجميع أنواع النظام والجمال التى نظمت سائر مواد الحياة وهذا هو الشعر فى معناه العام .

أما الجزء الثانى (وهذا لم يكتب قط) فسيكون غرضه تطبيق هذه النظريات على الحالة الراهنة لتهذيب الشعر ورد تلك المحاولة التى تسمو إلى العلا بتلك الصور الحديثة للأخلاق والآراء وتخضعها إلى الخيال وملكة الابتكار ، لأن الأدب الانجليزى

بذلك الرق السريع الذى سبقه أو صحبه شىء كثير من الرق القومى والحرية الفردية قد هبَّ قوياً نشيطاً كأنما عاودته حياة جديدة .

وعلى الرغم من الحقد الدفىء الذى ينقص من شأننا الآن فإن عصرنا سيبقى مذكوراً بالتفوق العقلى ، واننا سنحيا بجانب أولئك الفلاسفة والشعراء ، واننا نربأ بأنفسنا من أن ننزل الى درجة أولئك الذين ظهروا منذ حركة الجهاد القومى الأخيرة لأجل الحصول على الحريتين المدنية والدينية .

وإن أعظم نذير جدير بايقاظ شعب عظيم ليحدث انقلاباً نافعاً فى الآراء والتعاليم هو الشعر . وأولئك الذين سكنت فيهم تلك القوة كثيراً ما يكونون أقل ارتباطاً بروح الخير والحسن التى يسيطرون عليها وهذا يرجع إلى طبيعتهم . ولكنهم حتى فى انكارهم وابتعادهم عنها تراهم مضطرين إلى خدمة تلك القوة التى تربعت على عرش قلوبهم . ومحال أن نقرأ ما كتبه مشاهير كتابنا اليوم دون أن تصيبنا رعشة من تلك الروح المكهربة التى تحترق خلال كلماتهم ، فهم يقيسون محيط الطبيعة الانسانية ويقفون على أعماقها بروح نافذة ، وربما كانوا أنفسهم أعجب مظاهرها الحقة فأرواحهم ليست أقل من أرواح عصرهم قوة ونفاذاً .

الشعراء هم شرّاح الالهام الالهى . وهم المرائى لتلك الظلال الكثيفة التى يشعّها المستقبل على الحاضر . وهم الكلمات التى تفصح عن شىء لا تفهمه ، والابواق التى تعزف للمعركة ولا تشعر بما تبعثه ، والمحرّك الذى يحرك ولا يتحرك .

والشعراء هم مشرعو العالم وإن لم يُعترفْ بهم ؟

نظمى خليل

جون كيتس

(٣)

ونظم كيتس أحسن أعماله فى ربيع عام ١٨١٩ تحت تأثير ذلك الحب الجارف نذكر منها « الى بلبل » و « الحسناء القاسية » و « الكسل » وكثيراً من قصائده ومقطوعاته الجميلة .

واختلف مع صديقه هيدون فى تلك الاثناء ، ذلك أن الرسّام كان بحاجة الى مبلغ

من المال فأعطاه كيتس ثلاثين جنيهاً، ولما كانت حال كيتس قد أخذت تسوء فقد طلب إلى صاحبه أن يسدد ما عليه من دين ، فلم يحقق هذا رجاءه ، ومن ثم نشأ النزاع . ولكن براون أعطى كيتس ما يحتاج اليه من المال ليقضى صيفاً بهيجاً . وفى الثالث من يوليو ودّع كيتس (فانى) الى أيام يقضيها فى شانكلين ، حيث اقتسم المسكن مع جيمس ريس الذى قصد المكان نفسه للاستشفاء . وكان كيتس كذلك ضعيفاً فى تلك المدة ، ورغم ان الرجل الذى كان يعاشره فى تلك الرحلة من أذكى خلق الله ، إلا أنه لم يقوَ على انتشال الشاعر من سباته وذهولة ـ ولحق براون بالمريضين بعد قليل ، وعندها سافر ريس واختمرت فى ذلك الوقت فكرة (لاميا) القصيدة الخالدة فى ذهن شاعرنا . وأخذ عن براون موضوع مأساة مسرحية باسم (أوتو الأكبر) . وكان على كيتس أن ينشىء المحادثات . وبينما كان هذا العمل سائراً فى طريق النجاح ، انتقل كيتس وبراون الى وينشستر فى الاسبوع الثانى من اغسطس وعند انتهائهما من الفصل الخامس ، أعنى كيتس بروان من الرواية ، وأنهاها هو بمفرده ! وكذلك أتم (لاميا) ، وأبتدأ مأساة انجليزية تاريخية باسم (الملك ستيفن) أعطاه براون موضوعها !

وفى أوائل سبتمبر توجه براون الى بدهامبتون ليقيم مدة مع مستر ومسز سنوك. وفى تلك الفترة راجع الشاعر (حواء سنت اجين) وعمل قليلا فى (حواء سنت مارك) وكتب (الى الخريف) ، وعند ذلك فكر فى الرجوع الى العاصمة حيث يحترف الصحافة ، وحصل ديلك على مسكن له بشارع الكلية رقم ٢٥ فى النامن من اكتوبر ، وعاد براون إلى بيته وحيداً فى وينتورث . ولقد كانت صحة كيتس المتخاذلة الواهنة وحبه العميق (لفانى) وحزنه على أخيه المتوفى وقلقه على الآخر المهاجر ، كانت تلك الامور جميعها تؤثر فى نفسه وتهدّ أعصابه وقواه حتى صيرته خيالا هزيلاً فانياً ، أضف الى ذلك عمله المتواصل فى الصحافة والادب حتى أنه فى الثالث من فبراير تجلى به المرض المميت واضحاً قاضياً . يقول براون : « لقد عرفت أن لا فائدة ترجى منه بعد الآن ، انّ ما تبقى مخيف مرعب . سألته عند ما رأيته على هذه الحال : ماذا دهاك ؟ لعلك محموم ؟ فأجابنى : أجل ... أجل . لقد أصابنى بردٌ شديد أرهقنى . ولكننى لا أشعر الآن بأثر له فى جسمى ، محموم ؟ أجل .. لعلى محموم بعض الشىء .. ! واستسلم وتداعى ثباته ، وقدته الى الفراش برغمه وتبعته بالعلاج الممكن ، ودخلت مخدعه وهو يتهيأ للنوم ، وسمعته يسعل ويبصق

على الأوراق التى كانت على صـدره ـ وبلغ اذنى صوته يقول : هذا دم أبصقه من فمى ... فهرعت نحوه . فوجدته يختبر نقطة من الدم تناثرت على الورقة ، قال : قرّب الشمعة يابراون ، عساى أرى الدم ، وبعد أن فحصها باهتمام نظر فى وجهى فى جمال ويقين لن أنساهما ، ثم قال : « إننى أعرف لون الدم الذى بصقته ، لن اخدَعَ فى تمييزه ، ان هذه النقطة من الدم نذيرُ حَيْنِى ، لابد أننى سأموت عن قريب ».

وتقول فانى عن هذا المرض الخبيث إنه « ابتدأ بتدرن الرئتين من البرد ، وكان إذا سعل ملأ اناءً من الدم ، ويظهر أن مرض التدرن هذا كان وراثياً . . . »

وبعد أسابيع قضاها فى عنـاية تامة فى وينورث ، ابتدأت صحتـه تتحسن ، وراح يجد فى نفسه القدرة على الخروج فى ٢٥ مارس سنة ١٨٢٠ لرؤية عرض صورة هيدون (عن دخول المسيح بيت المقدس) وعاد اليه صفاؤه واتزانه ونقاء قلبه ، ونسى ما كان بينه وبين هيدون . ويقرر هيدون فى ذكرياته ان المعرض كان غاصاً بالناس وكان كيتس وهازليت فى ناحية يتحادثان فى ابتهاج وحرارة . وقال له الأطباء فيما بعد إن شتاء واحداً يقضيه تحت سماء انجلترة قد تـكون منه خاتمته . وكتبت ماريا جبسون فى ١٢ يوليو تقول: « لقد تألمت جداً عند رؤية جون المسكين ، انه ينتظر كلمة الاعدام من فم الطبيب (لامب) . وكتب شيللى اليه من بيزا خطاباً يدعوه الى السفر الى ايطاليا ليكون الى جانبه هنالك . بيد أنه اعتذر عن تلبية الدعوة شـاكراً له تفضله العظيم ولـكنه أراد السفر الى ايطاليا ، وصمم جوزيف سيفرن على مصاحبة الشاعر اليها ، وكان قد ربح وسام الأكاديمى الملـكية الذهبي لعـام ١٨١٩ ، وفى ١٨ سبتمبر ابحر الشابان على ظهر الباخرة (ماريا كراوثر) الى نابلى . ولقد صادفا فى الطريق مصاعب جمة ، وهبت زوبعة عند خليج مسكاى أطارت الأمن من قلبيهما .

وأخيراً وصلا ايطاليا ، وكتب منها الشاعر الى براون فى أوائل نوفمبر ، وقبل منتصف هذا الشهر بلغ الشابان رومة وأقاما فى مسكن فى Pazza di Spagna ، أنيق للغاية ، وبقى كيتس تحت رعاية الطبيب كلارك وعنايته ، وكتب آخر خطاب فى ٣٠ نوفمبر الى براون ، وعند ذلك ساءت صحته فجأة ، وصار يبصق الدم ويتقايأ بغزارة حتى ارتاع صديقه وزميله الأمين الذى لازمه كظله واعتنى به طولَ مرضه وأخلص له حتى الرمق الأخير ، وامتدّ هذا العذاب المريع الى ١٣ من فبراير . ويحـدثنا سيفرن عن الخاتمة :

« لقد انتهى اماته بغاية السهولة . لقد كنت أحسبه مقبلاً على نوم عميق ... فى الساعة

الرابعة دنا منه الموت ، فقال لى : سيفرن . . . أيها الصديق الوفى . ارفعنى قليلاً — إنى أموت — سأموت مرتاحاً مطمئناً ، لاتخف ، كن ثابتاً ، واشكر الله على أن عجل بوفاتى ... فرفعته بين ذراعىّ . وكانت روحه تفارقه ، فهدأ وكنت لاأزال أحسبه ينام ... لايمكننى أن أطيل الآن لقد تحطمت أعصابى من سهرى عليه هذه الليالى الأربع ، لم يغمض لى جفن خلالها ، ولقد ذهب ... ذهب عزيزى كيتس ... ولقد شق صدره منذ ثلاثة أيام ، وأخرجت الرئتان . ويعجب الأطباء هنا ، كيف أمكنه أن يعيش هذين الشهرين بهاتين الرئتين المحطمتين . ! تبعت جثمانه العزيز الى قبره يوم الاثنين وسط رهط من الانجليز المقيمين هنا . انهم يهتمون بى كثيراً . أرى انه ربما أصابتنى حمى ، ولكنى الآن أحس حالاً » .

دُفن فى رومة فى مقبرة البروتستانت ، ودفن الى جانبه بعد أجل طويل صديقه المخلص الأمين سيفرن ... ولم يسمع شيللى فى بيزا بفاجعة رومة إلا فى ابريل ، فتألم الشاعر الكبير ألماً بالغاً ، إذ كان يحب كيتس ويجلّ شاعريته الصافية التى كان ينكرها ويحاربها الكثيرون من أهل عصره ، فكتب قطعته الملتهبة (أدينوس) ووهبها روح الشاعر العظيم (جون كيتس) .

* * *

هذه ترجمة عاجلة سريعة للشاعر الكبير أردنا نقلها لجمهرة المتأدبين فى اللغة العربية ليقفوا على حياة تلك النفس الشاعرة الكبيرة ، أما النقد الأدبى لشعر كيتس فموضوع ليس هذا مكانه وانما يجب أن نقصر عليه دراسة خاصة به لأهميته ، وربما حاولنا ذلك لو ساعدتنا الظروف ، ومع هذا فنسجل مع هذه الكلمة نظرة سريعة فى شعر كيتس للفائدة العامة :

لا يمكننا أن نقرأ شعر كيتس إلا إذا أحطنا بظروفه كلها ، وعرفنا كيف كان يفنى ويحترق فى سبيل الفن الخالص الصادق . وان الذى يجرؤ على الكتابة عنه لابدّ أن يكون قد أحاط خبراً بالفلسفة الشعرية والميثولوجيا الاغريقية التى كان كيتس مولعا بها إلى حد العبادة ، والواقع أن كيتس كان على حق حينما كتب الى أخيه جورج يقول انه لابد سيصبح « علماً من أعلام الشعر بعد موته » . ولم يخل الشاعر مع ذلك من هنات بسيطة لا تعد سقطات اذا قيست بالجمال الفنى الرائع الشائع فى كل شعره ، وإذا قيست كذلك بأخطاء الشعراء القدامى الفاحشة . ولقد كان سبنسر

عظيم التأثير فى روحه كما يلوح لنا من مذكراته فى (أنديميون) ، ورغم ذلك فانى أرى روح تومسون غالبة على شعره الأول .

ثم لا ننسى أنه مدين للآداب القديمة ، فهى دائماً مذكورة فى شعره و(انديميون) فيها ثقافة خيالية بارعة ، وإن متانة حبكتها واسترسال جمالها لا يسمحان للمرء بالتفكير فى نقدها لحظة واحدة . وهناك غير (أنديميون) قصائد كثيرة ، بارعة سامية الخيال خصبة التفكير ، قلما يعثر على أمثالها المرء فى الشعر الانجليزى الحديث ، فهناك : الى بلبل ، وإلى الخمول ، وحواء سفت مارك ، والحسناء القاسية، تعتبر جميعها بين عيون القصيد .

أما الميثولوجيا فقد تحدث عنها الشاعر بما لم نعهده قبلاً من سواه . وفى رسالة الى جورج ماتيو يقول :

« فى ساعة سعيدة
هبطت (ديانا) من مقصورتها المظللة » . . الخ .

وفى أخرى الى جورج كيتس يخبرنا الشاعر عما يراه فى السماء بجانب القمر :

« آه ! . . أجل . . كائنات كثيرة تسبح فى نوره
وأشباح الليل وشياطينه
انى لأراها رأى العين ، وسأقص عليك قصصها التى ستنتزع طرافتها صيحة الاعجاب من فؤادك » ... الخ .

ويقول فى رسالة إلى كلارك:

« وحينما يبسم القمرُ فى ليلة الصيف الغراء
ويُضفى أشعته فتخترق السحب وتشقها » . . . الخ .

ويقول مرة أخرى لجورج كيتس :

«ظهر القمرُ بجلاله مخترقاً أستاره الذهبية
مخفياً نصفه عن عيون حاسديه » .. الخ .

والواقع أنه أدمن الكتابه عن القمر ، حتى حسبه قوم أنه عاشقه !

ومن العجيب أن هذا الشاب استطاع أن يخلد اسمه بكتاباته بين العشرين والخامسة والعشرين فقط ! كتب كيتس الى شقيقه يقول : « انى أظن أن سيدرج أسمى

بين الشعراء بعد موتى . . . » ولكن أرنولد قال « إنه مع شكسبير » . . . والواقع هو ذلك ؟

المصادر

The Literary Pocket-Book
Leigh Hunt's London Journal
The Poetical Works of John Keats
The Life and Letters of John Keats
Wordsworth, Shelley, Keats, and Other Essays
The Papers of a Critic
Benjamin Robert Haydon.
John Keats. A study (Owen)

مختار الوكيل

بشار بن برد

(١)

مقدمة : لعلى أستطيع أن أتحدث الى قراء (أبولو)عن شيخ المخضرمين وحامل لواء الشعر الرصين ، وحجة اللغة والأسلوب المتين ، بشار بن برد الذى ظلمه الدهر حياً ومَيْتاً . فقد عاش والناس يخطبون وده ، لا شفقة عليه ، ولا رحمة به ، بل خوفاً منه ، وتفادياً من لسانه . ومات ، والكل فرح بموته . فلم يشيعه الى مثواه الأخير ، الا عجوز شمطاء ، هى جارية له سوداء . ولم يجد عليه بكلمة رثاء ممن كان يجزل لبشار العطاء ، أو يتظاهر له فى حياته بالرعاية والولاء . ولم تذرف عليه دمعةً أيةُ غانية أظهرت له الوفاء ، وقد مدحها فى شعره ، فارتاحت للمدح والثناء ؛ وقضى ضرباً بالسياط وألقى فى سفينة حتى مات . واستلت حياته من يد الأجل ولم يخلف لنا ديوان شعر نستنير بهديه ، ونستشهد به على جودة شعره . وله من قلائد عقيانه ما لم نفز منه الا بالقليل . واذا صح ان له ديواناً فى احدى المدن الاسلامية ببلاد المغرب ، وان نفراً من أساطين الأدباء يعملون على نشره ، كان

لنا ما يعيننا على تعرف ما استغلق علينا فهمه ، من شخصية هذا الشاعر المجيد ، ولعلى أستطيع أن أضع شعره بين كفتى ميزان لنحكم له أو عليه . ولعله يجد من القراء النصفة ، بعد أن سامه بغضاً له، وموجدة عليه ، واجحاداً لفضله، اسحق ابن الموصلى ، الذى قال عنه إن ذاكرته مهوشة ، وشعرَه مضطرب غيرُ متناسق ، وإن غثَّ شعره أقل مرتبةً من أى شعر ردىء ، مستشهداً بقول بشار :

انما عظمُ سليمى حبَّتى قصبُ السكر لا عظمُ الجملْ
فاذا أدنيتَ منه بصلا غلب المسكُ على ريح البصلْ!

فهل فى شرعة الانصاف ان نذم شاعراً ألف اثنى عشر ألف قصيدة ، جلها جيد متين ، من أجل بيتين ضعيفين ؟ إذا كان كذلك ، قلت على الشعر العفاء ورحمة الله على جميع الشعراء ! لا معصوم بحق الا الله .

سيرته : هو أبومعاذ ، بشار بن برد . أبوه من فرس طخارستان ، أحد الاقسام الجنوبية من التركستان . ولد بالبصرة بالعراق سنة خمس وخمسين هجرية ، ونشأ فى بنى عقيل فشب فصيح اللسان ، قوى الجنان ، مرهف الذهن ، متين البيان . قال الشعر فى السابعة ، وفى رواية أخرى فى العاشرة . فهو شاعر مطبوع أجمع الرواة على أنه أشعر أهل عصره . جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر وبين المعانى الدقيقة والأخيلة الرقيقة . وسنرى أنه أشعر الشعراء فى زمنه ، وأولهم فى البديع ، وأسبقهم الى الغزل الرقيق وإن كان أكثرهم مجوناً واستهتاراً ، وأقلهم مبالاة واعتباراً .

بشار وأبو العلاء وجون ملتون : ولد بشار أعمى البصر ، نافذ البصيرة . لم تكتحل عيناه بمرأى الضياء ولكنه وصف من الاشياء بما عجز عن وصفه البصراء . كان بشار كأبى العلاء : كلاهما أعمى ، وكلاهما متشائم . أولهما شانىء مشنوء ، وثانيهما مبغض غيرُ بغيض . كلاهما مرهف الذهن حقاً وصدقاً ، وكلاهما متهم بالزندقة ، إن ظلماً وإن عدلاً . أولهما يشكر الله على عماه حتى لا ترى الناس عيناه ، وثانيهما يحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ويتبرم بالعيش والحياة . كان بشار فى عماه وذكائه كالشاعر الانجليزى العبقرى جون ملتون الذى عاش من سنة ١٦٠٨ إلى سنة ١٦٧٤م. والذى ألف فى عماه « الفردوس المفقود » و « الفرودوس المردود » . كلاهما شاعر مفلق وكلاهما غزير المادة فنان عبقرى . أولهما عمى فى طفولته ، وثانيهما عمى فى كهولته . كلاهما يحمد الله على عماه . أولهما لكيلا يرى

شخصاً سواه ، وثانيهما حباً فى حمده ، واذعاناً لقضائه وقدره ، وطمعاً فى ثوابه وأجره .

بشار ولدوج فان بيتهوفن : ليس غريباً أن يكون بشار أعمى البصر ، مرهف الذهن متوقد البصيرة . فقد كان بيتهوفن فخر المانيا ونابغة الموسيقى أصم محروماً حاسة السمع فلم يحل صممه دون قدرته الفنية الموسيقية . فقد عاش من سنة ١٧٧٠ لغاية ١٨٢٧ م . وأصبحت حياته بموته وعبقريته فى سماء الخلود . وبلغ قمة مجده فى ابان صممه ، وفى أثنائه ألف كثيراً من القطع الموسيقية والألحان ومنها «سوناتا باسيوتيكا » و « باتيتك سوناتا » و « المارش العاشر » .

أخلاق بشار : كان بشار قوى الجسم ، ضخم الجثة ، دقيق الحس ، رقيق النفس ملتهب العاطفة ، قوى الشعور ، متكالباً على اللذة ، يحوم عليها حومان النحلة على الازاهر كما كانت الناحية الخلقية فيه مشوبة بالضعف والنقص . ولكل امرىء محاسنه ومساوئه .

شعره فى الميزان : فلنضع شعر بشار بين كفتى ميزان ، لنرى الكفتين أيتهما الراجحة ، ولننظر فيما أجاد من فنون الشعر وأغراضه ، نر أنه كان نابغة الفن ونبراس البيان . وكان متين اللفظ قوى الأسلوب ، كما كان شاعراً مطبوعاً ذكياً ، مجيداً كل الاجادة عبقرياً . ذلك لانه ضرب فى كل أغراض الشعر بسهم وافر ، واذا عرفنا أن أغراض الشعر فى زمنه ثمانية هى : المدح والحكم والوصف والفخر والرثاء والاعتذار والغزل والهجاء ، وقد يجيد كل شاعر بعضها دون الآخر ، أيقنا أن بشاراً ، اذا أجادها ، جلها أو كلها ، كان شاعراً مفلقاً ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحقه فيها لاحق .

بعض الآراء فى شعره : يعتبر شعر بشار حلقة الاتصال بين الشعر القديم والشعر الحديث . قال الجاحظ : «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج وسجع ورسائل . وهو من المطبوعين أصحاب الابداع ، المتفننين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه » وقال عنه عبد الله بن محمد بن شرف القيروانى : « هو أول المحدثين ، وآخر المخضرمين وممن لحق الدولتين . عاشق سمع ، وشاعر جمع . شعره ينفق عند ربات الجمال وعند فحول الرجال . فهو يلين حين يستعطف ، ويقوى حتى يستنكف . وقد طال عمره ، وكثر شعره ، وطما بحره ، ونقب فى البلاد ذكره» .

وسئل عنه الأصمعي فقال : « هو خاتمة الشعراء . والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . لقد سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفاً وفنونَ شعرٍ وأغزر وأوسع بديعاً . وهو يصلح للجد والهزل» .

مدحه : أجاد بشار فى المدح ، وسما بالممدوح الى أوج الكمال . فكان مدحه كثيراً ، ورزقه ميسوراً ، فمن أمدح شعره قوله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندى !

وقال يمدح خالداً بنَ برمك بقصيدة أعطاه عليها ٣٠ ألف درهم :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابنُ برمك ... وما كل من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدرّتا ... سماحاً كما درّ السحاب مع الرعد
اذا جئته للمجد أشرق وجهه ... اليك واعطانى الكرامة بالحمد
مفيد ومتلاف سبيل تراثه ... اذا ما غدا أو راح كالجزر والمدّ
أخالدُ ! إن الحمد يبقى لأهله ... جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدّ
فأطعمْ وكلْ من عارةٍ مستردّةٍ ... ولا تبقها . . . ان العوارى للردّ !

وقال ايضاً :

حذا خالدٌ فى فعله حذو برمكٍ ... فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الاعدام فيه دليل
يسمّون بالسؤّال فى كل موطن ... وإن كان فيهم نابه وجليل
فسمّاهم الزوارَ ستراً عليهمُ ... فاستاره فى المهتدين سدول

ومن غرر قصائده ما قاله فى مدح عمر بن هبيرة احد القواد :

جفا وده فازورّ أو ملّ صاحبه ... وأزرى به ألاّ يزال يعاتبه
يخاف المنايا ان ترحلت صاحبى ... كأن المنايا فى المقام تناسبه
فقلت له ان العراق مقامه ... وخيم اذا هبت عليك جنائبه

حكمه : ومنها فى الحكم

اذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معائبه !

ولكن ، ليت شعرى ، أفما كان الأجدر ببشار ان يقرن هذا القول بالعمل ، فلا يسرف فى بغض الناس حتى يعيش معهم فى سلام ووئام؟ لقد كان أولى به . فأولى أن يعرف نفسه بنفسه ، فينصحها قبل ان ينصح غيره . وما له لم يجده ذكاؤه نفعاً ولم يستخدم هذا الذكاء فى التحبب الى الناس ليكون محباً لهم محبوباً منهم لعل له عذراً ونحن نلوم . ولعل الناس أرهقوه من أمره عسراً ، وساءوه بايذائهم ، فأساء بلسانه اليهم . ولو لم يلق منهم ايذاء ، لما كان سليط اللسان هجاء. لقد أدى بشار رسالته على موجات الأثير ، كما يؤدى جهاز الراديو رسالته . وقد يكون بشار جباراً ، وكل ذى عاهة جبار . وقد يكون عليه حرج ، وليس على الاعمى حرج . وقد يكون مظلوماً أفسده المجتمع ، وأساء اليه الناس باعناتهم ، فخرج شيطاناً رجيماً ، بدلا من أن يكون ملاكاً كريماً . قد يكون ظالمه غيره وقد يكون ظلم نفسه . ويا ويح امة ابتليت بشاعر استمرأ مرعى البذاءة ، أو صاحب محطة للراديو يصدع آذان المستمعين بهجر القول وفحش الحديث ! وتبعاً لذلك ألوم الذين ساعدوا بشاراً ، لا رحمة به ، بل خوفاً منه وهرباً من لسانه الذى (لو سلط على شعر لحلقه ، أو على حجر لفلقه) ! وسأؤاخذ بشار فى هجائه المقذع ولسانه المرهف .

نصائحه : من أروع ما قال فى النصيحة

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغلّ أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوماً ، فان الحزم ليس بنائم
وحارب اذا لم تعط الا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأدن على القربى المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امرأ غير كائم
فانك لا تستطرد البهم بالمنى ولا تبلغ العليا بغير المكارم
اذا كنت فرداً همّك القوم مقبلا وإن كنت أدنى لم تفز بالعزائم

كأني به قد عرف نفسية الأفراد والجماعات ، وكأني به ينطق بلساننا ويشعر بشعورنا ويعيش بين ظهرانينا ! وقد صدق ابوعبيدة إذ قال : «ان ميمية بشار هذه أحب الىّ من ميميتى جرير والفرزدق». لعلنا طربنا لما قال ولعلنا نطرب إذ نسمع :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا فى يد امرىء فحقّ له من طاعة بنصيب

(للبحث بقية) منولى نجيب

نقد الينبوع

(١)

أشرنا من قبل الى اعياد الشعراء والأدباء عامة أن يتعالوا على النقاد ، والى نزوع الأخيرين مثل هذا المنزع ، بحيث صار كل فريق يعدّ نفسه دكتاتوراً أدبياً لا مردّ لقوله ! وقد بذلنا جهدنا سنين لبثّ روح الاحترام الواجب التبادل بين الفريقين ، وروح التسامح واحتمال المنافشة ، ما دام الغرضُ من النقد والنقاش خدمة الحقيقة خدمةً خالصة .